المنطلقات الفلسفية لعلوم الإعلام والاتصال

أ/ عبد الله ثاني محمد النذير[1]
قسم علوم الإعلام والإتصال جامعة مستغانم

تمهيد:

برزت الظاهرة الاتصالية إلى الوجود مع بداية الإنسان ممارسته الاتصال فقد تطور هذا المفهوم عبر التاريخ نتيجة تطور وسائله فبدأ الإنسان يمارس الاتصال عن طريق الإشارات والإيماءات والرموز ثم مر بعد ذلك إلى أن اخترعت المطبعة التي كانت نقطة انعطاف في تحول تاريخ الاتصال من الاتصال التقليدي الشخصي إلى الاتصال الجماهيري فالفضل يعود لهذه التقنية التي حولت المجتمع من مجتمع جمعي إلى مجتمع جماهيري.

تجدر الإشارة أن معالجة المسألة الفكرية والفلسفية لا تتم بصفة تجريدية عن العوامل الأخرى، في هذا الإطار نعتقد أن أهم مدخل لطرح الإشكالية الفلسفية هو ذلك الذي ينطلق من الثورة الاتصالية التي شهدتها وسائل الإعلام والاتصال ومن هنا فإننا نحاول في هذه الدراسة طرح علاقة الفلسفة بتكنولوجيا الإعلام والاتصال. والبداية تكون بمعرفة مكونات الظاهرة الإعلامية التي تتسم بالتداخل والتعقيد. ذلك أن المتمعن في المشهد الإعلامي عل الصعيد الدولي يلاحظ أن الإعلام ارتبط تاريخيا بحركة الرأسمالية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر، وتطور باتجاه العالمية والاحتكار ويتحكم فيه منطق السوق، ويقوم على الملكية الفردية والربح والتنافس.كما أن هذا الإعلام مرتبط بسياق التكنولوجيا الحديثة التي دفعت الاتصال إلى مرحلة عالية من الكثافة والسرعة والانتشار الأمر الذي أدى إلى تسريع نقل الرسائل وزيادة التفاعل بين المرسل والمتلقي. وهو كذلك مرتبط بالفكر الاقتصادي لوسائل الإعلام من تجارة وصناعة وتمويل لهذا الاتصال.

1- ماهية علوم الإعلام والإتصال

فيما يخص الباحثين الذين تطرقوا إلى الإشكال الإبستمولوجي في علوم الإعلام والاتصال تطرق ايبار فوندان Hubert fondin في مقال له حول علوم الإعلام القطيعة الإبستمولوجية وخصوصية الموضوع بحيث أشار بأن الباحثين في علم الإعلام لم يفهموا حقلهم البحثي مقارنة بباحثين في تخصصات مجاورة أو مع الباحثين في تخصص علم الإتصال وبالتالي كيف نفكر لإيجاد هذا الحل والبعد المعرفي للإطار النظري للموضوع وهذا من أجل التحقق من الإشكال المطروح وإيجاد الأدوات البحثية لمنهج دراسة هذا الموضوع[2].
فهذا التهافت والتضارب في تحديد هوية وخصوصية موضوع الإعلام والإتصال جعل من الباحثين دمج مفهوم الإعلام في ظاهرة الإتصال وأصبحت علاقة الاتصال بالإعلام هي علاقة احتوائية ومن خلال هذا الطرح ارتأينا أن نقف عند التعريف للمفهومين لغويا واصطلاحا.

1-1- مفهوم الإتصال

يعد الاتصال أحد السمات الإنسانية البارزة، سواء أكان ذلك في شكل كلمات أم صور أم موسيقى،مفيد أم ضار،مقصود أم عشوائي، فعلى أم مستتر، إعلامي أم لإقناعي، واضح أم غامض، ذاتي أم مع آخرين[3].

. الإتصال لغة: الاتصال في اللغة كما تشير المعاجم يعني الوصول إلى الشيء أو بلوغه والانتباه إليه[4]، وتستخدم كلمة "اتصال" في سياقات مختلفة، وتتضمن تعني تبادل الأفكار communicationمدلولات عديدة، فهي بمعناها المفرد Communicationsوالرسائل و المعلومات وتشير في صيغة الجمع إلى الرسائل التي تحمل مضمون الاتصال.[5]

وأما كلمة communication بالإنجليزية فمشتقة من الأصل اللاتيني communis و معناها عام أو شائع أو مألوف،وتعني الكلمة:"المعلومة المرسلة، الرسالة الشفوية أو الكتابية ،شبكة للطرق وشبكة الاتصالات كما تعني تبادل الأفكار والمعلومات عن طريق الكلام أو الكتابة أو الرموز"[6].

الاتصال:

اصطلاحا: لقد ظهرت تعريفات عديدة لا يمكن حصرها لمفهوم الاتصال.

من قبل الباحثين والمتخصصين في علوم الإعلام والاتصال عكست في معظمها أهميته ودوره في الحياة الإنسانية والمكونات والعناصر الأساسية لعملية الاتصال ومن هذه التعريفات على سبيل المثال لا الحصر.

"العملية التي تنقل بها الرسالة من مصدر نعين إلى مستقبل واحد أو أكثر وسائل أخرى بغرض الإقناع أو التأثير على السلوك"[7].

و حسب تشارلز "CH.R.wright" فهو يرى أن الاتصال هو عملية نقل المعنى أو المغزى بين الأفراد[8].

و تتبنى "جيهان رشتي" تعريف الاتصال بأنه: "العملية التي يتفاعل بمقتضاها متلقي و مرسل الرسالة –كائنات حية أو بشر أو آلة– في مضامين اجتماعية معينة, و فيها يتم نقل الأفكار و المعلومات (منبهات) بين الأفراد عن قضية أو معنى أو واقع معين, فالاتصال يقوم على مشاركة المعلومات و الصور الذهنية و الآراء ".

و يذهب "سمير حسين" إلى أن الاتصال: "هو النشاط الذي يستهدف تحقيق العمومية, أو الذيوع أو الانتشار أو الشيوع لفكرة أو موضوع أو منشأ أو قضية، و ذلك عن طريق انتقال المعلومات أو الأفكار أو الآراء أو الاتجاهات من شخص أو جماعة إلى أشخاص أو جماعات باستخدام رموز ذات معنى واحد و مفهوم بنفس الدرجة لدى الطرفين.

ويرى "محمود عودة ": "أن مفهوم الاتصال يشير إلى العملية أو الطريقة التي تنتقل بها الأفكار أو المعلومات بين الناس داخل نسق اجتماعي معين، يختل من حيث الحجم، ومن حيث العلاقات المتضمنة فيه، بمعنى أن يكون هذا النسق الاجتماعي مجرد علاقة ثنائية نمطية بين شخص أو جماعة صغيرة، أو مجتمع محلي أو مجتمع قومي أو حتى المجتمع الإنساني ككل"[9].

والاتصال هو العملية أو الطريقة التي يتم عن طريقها انتقال المعرفة من شخص لآخر حتى تصبح مشاعا بينها ،ويؤدي إلى التفاهم بين هذين الشخصين أو أكثر وبذلك يصبح لهذه العملية عناصر ومكونات واتجاه تسير فيه، وهدف تسعى إلى تحقيقه ،ومجال تعمل فيه ويؤثر فيها "[10].

1-2- مفهوم الإعلام

اصطلاحا:

يتصل معنى الإعلام بالأخبار والأنباء والحوادث العرضة، ولا يتضمن في المعنى اللغوي أكثر من الإنباء والإظهار والإبراز فيكون من هذه الجهة أكثر اتصالا بالأحداث وأشد تعلقا بالصفة الأنية العابرة[11].

لمعرفة المعالم التي تميز المواضيع ذات ثقافة ونظام مشترك تصوري وخبرة تخص هوية الموضوع إلا أن كما أدلى به في هذا المقام فيما يخص الإعلام برنارد لاميزات Bernard LAMIZET بأن :" الإعلام ينشر بين مواضيع التركيبة الإجتماعية لبناء الروابط الإجتماعية ومعرفة الأثار "[12].

وليس هناك تعريف محدد لمفهوم الإعلام " الإعلام أو "العمل الإعلامي" بسبب اتساع مفهومه وتداخله في الكثير من مجالات النشاط الإنساني والعلاقات الإنسانية بمختلف أنواعها، ولهذا يصعب تحديد لفظة " الإعلام بسبب اختلاف منهاجه وتعدد أدواره، وتباين مذاهب الباحثين[13].

ويستخدم الإعلام للدلالة على عمليتين في وقت واحد تكمل إحداهما الأخرى فهو يشير من جهة إلى عملية استقاء واستخراج المعلومات والحصول عليها من خلال التواجد السريع والفوري في مكان الحدث، أو الغوص في أعماق صاحب المعلومة طولا وعرضا لاستخلاص المعلومات.

-مسألة بحوث الإعلام والاتصال:

شهدت العقود الخمسة الماضية جدلا واسع النطاق حول أهمية بحوث الإعلام والاتصال وامتد هذا الجدل ليشمل كل الأعمال والوسائل والأساليب الإعلامية والاتصالية محليا و دوليا، وما يمكن أن تؤديه الأبحاث الاتصالية من دور متميز في ترشيد السياسات الإعلامية التي تنطوي عليها هذه الوظائف والوسائل والأساليب وتطوير طرائق وأساليب الممارسات الإعلامية المختلفة، هذا الجدل الذي جرى تمخض عن اكتشاف العديد من المتغيرات الناظمة لبحوث الإعلام من حيث أهميتها وأهدافها ومجالاتها ودورها الوطني والإقليمي والدولي ومناهجها والمشكلات التطبيقية التي تواجهها وتقل من إمكانية الإستفادة منها.

الملاحظ بالنسبة للمفكر الفرنسي ريجيس دوبري Regis Debry بأن المعانات الإنسانية القديمة قد فقدت صوت ضروري وحتمي، إن من الأهمية بمكان أن المؤسسة في كل عملياتها الإرسالية ، أو بالأحرى كي تبقى الذاكرة مكتوبة لابد من وسيط بين النص الراهن والقراء المعنيين أو المستهدفين، تبقى المؤسسة التحريرية بتقنياتها الكلاسيكية في الإنتقاء وهيراركية أو تسلسل المعلومة[14].

كما أنه إذا حاولنا أن نفهم ماتنشره وسائل الإعلام دون إغفال عملية الإتصال وكيف يؤثر مضمون وسائل الإعلام على الرأي العام أي أننا لا بد وأن ندرك الأثر الكبير الذي تحدثه هذه الوسائل على اتجاهات وميولات ورغبات الرأي العام، كما أدلى بعض الباحثين في الشؤون الإعلامية والاتصالية أنه من الصعب جدا وضع حدود واضحة تحدد الأبحاث الإعلامية وتفصلها عن غيرها من الأبحاث الإنسانية، إن الباحث لا يدرس وسائل الاتصال فقط، بل يدرس العملية الاتصالية برمتها، وهذا مايجرنا للحديث عن علاقة الاتصال بالعلوم الإنسانية وعلى رأسها علم النفس العام، علم النفس الاجتماعي، الاقتصاد، الأنتروبولوجيا، القانون، الاجتماع، السياسة.

كما أنه ما خلص به الباحث والمفكر في الإعلام والاتصال ولبرشرام أنه:" من الصعوبة يمكن التفريق ما بين أبحاث الإعلام وأبحاث الاتصال، فالمصطلحان يلتقيان في المضمون ويختلفان في الشكل واللفظ وأي محاولة للتفريق بينهما ستزيد الأمور تعقيدا"[15].

كما فسر برنارد مياج Bernard Miege في كتابه الإعلام والاتصال كموضوع معرفة بأن مسألة وسائل الإعلام تتطلب من جميع الباحثين والمتخصصين في الاتصال بأن يعتبرون وسائل الإعلام والتكنولوجيات الإعلام والاتصال هي في قلب أسئلة التحليل والاقتراحات النظرية لدراسة المجتمعات المعاصرة في بناءها الاجتماعي ومستقبلها الاقتصادي وخاصة في التنمية السوسيو ثقافية وبالتالي ربط الظاهرة الإعلامية بالتطور التقاني كما صرح به عالم الاتصال الكندي مارشال ماكلوهانMc Luhan [16].

كما يطرح المفكرين الفرنسيين أرمان و ميشال ماتلار Armand et Michèle mattelart في كتاب " التفكير في وسائل الإعلام بأن موضوع الإعلام والاتصال هو غامض ابستمولوجيا بحيث هذا الموضوع ينسى بيئة انتاجه التاريخية والاقتصادية واللسانية
وخاصة انتاجه الفكري[17].

2- الدعامة الفلسفية لنظريات الإعلام والإتصال

2-1- النظرية الليبرالية

إذا تناولنا دعائم النظرية الليبرالية بشيء قليل من التفصيل، فإننا نجد أن الدعامة الفلسفية لها تقوم عل رصيد هائل من كتابات الفلاسفة والمفكرين الذين شغلتهم قضية الحرية والذين كان لكتاباتهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر أثر على فكر الثورة الفرنسية، ولأن الفكر الفلسفي لا يقف عقيما في حياة جارية، فقد تطورت أفكار الحرية عند فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين بما يواكب تطور المجتمعات القائمة على فلسفة الحرية الرأسمالية وبروز الاحتكارات العالمية.

ومجمل ماذهب إليه فلاسفة الحرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر يرتكز على النظر إلى العالم كآلة ضخمة ذات حركة مستمرة، وهذه الآلة تسير وفقا لقوانين الطبيعة (...) ومن هذا الأساس الفكري والفلسفي نتبين بوضوح الدعامة الفلسفية للنظرية الليبرالية للإعلام فوفقا للنظرية الليبرالية ينبغي أن تكون للصحافة قاعدة كبيرة من الحرية كي تساعد الناس في بحثهم عن الحقيقة، ولكي يصل الإنسان إلى الحقيقة عن طريق العقل ينبغي أن تتاح له حرية الوصول إلى المعلومات والأفكار وهو يستطيع أن يميز فيما تقدمه له الصحافة بين الحقيقي والزائف باستخدام عقله[18].

وفي القرن العشرين أصبح المفهوم الفلسفي للحرية في المجتمع الليبرالي يتضمن مسئولية وسائل الإعلام اتجاه المجتمع، وظهرت نظرية المسؤولية الاجتماعية التي أكدت فرضية بأن الإعلام له دور اجتماعي بالدرجة الأولى وأصبح المفكرون يوجهون النقد المباشر والعنيف لصحف الإثارة التي تسعى في نشر الفضائح والجنس والجريمة(...).

2-2- النظرية الشمولية

يرى كثير من الباحثين أن أفلاطون في جمهوريته قد وضع الأساس الفلسفي لنظم الحكم الشمولية، وأنه جعل الدولة هي المصلحة العليا ومصلحة الفرد دونها . وأنه صرف جل اهتمامه إلى الدولة وجعل كل القوى مسخرة في سبيلها، وهو في سبيل ذلك لم يجد ضميرا في التضحية بمصلحة الفرد من أجل مصلحة الدولة.

ثم يجيء بعده هيجل المثالي ثم يعقبه كارل ماركس الفيلسوف المادي، ولكن النظرية الشمولية في إطارها الفلسفي المعاصر تعتمد على الفلسفة المادية في البلدان الشيوعية بصفة عامة، ولاشك أن الفلسفة المادية تعني عند أصحابها أيديلوجية شاملة وليست كما يتهمها مخالفوها بأنها تعني مفهوم الاستمتاع الحسي.

2-3- النظرية المختلطة

العلاقة بين الفرد والمجتمع كانت ومازالت الشغل الشاغل للإنسان منذ عصوره القديمة حتي اليوم ، وعندما ظهرت بلدان العالم الثالث الوجود السياسي والدولي في القرن العشرين كمجتمعات مستقلة ونامية، كان أهم ما طرأ على فلسفة وتطبيق العلاقة بين الفرد والمجتمع خلال أحقاب طوية من التاريخ هو الإعتراف بدور الدولة و تدخلها حتى في المجتمعات الليبرالية، ثم التقارب والترابط بين الشعوب نتيجة لنمو وسائل الإتصال عالميا(...)، وإن تعقبنا الدعامة الفلسفية لنظرية الإعلام المختلطة فإننا نقف أمام حقيقتين أساسيتين: أولهما أن الفكر الماركسي يرى في تجارب العالم الثالث الاشتراكية تحريفا ، وأن الفكر الليبرالي يرى في تجارب العالم الثالث الليبرالية المقيدة زيفا، أما الحقيقة الثانية، فإن بعض تجارب العالم الثالث قدمت نظريا إطارا متكاملا لفكر سياسي جديد يقف على قدميه كقرين وند للفكر الماركسي وللفكر الليبرالي[19].

إن الحديث عن المسألة الفلسفية لعلوم الإعلام والاتصال وهو أمر يتطلب التفكير العميق تاريخيا وربط تطور الظاهرة الاتصالية بالثورة التكنولوجية لوسائل الإعلام فالتصنيف الذي قدمه ريجيس دوبري بأن الاتصال بدأ بالصور الذهنيةLogosphère وتحول إلى الصور بصريGraphosphère إلى أن أصبح صورة متحركةvidéosphère ومعاصرا بفضل التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال ظهور مفهوم التفاعلية في الاتصال بفضل المواقع من الجيل الثانيWEB02، كل هذا التحول على هذا المستوى يحيلنا إلى نسق فلسفي واحد وهو الرجوع إلى الاتصال الذهني الذي يبقى مؤسسا لأشكال الإعلام والاتصال الأخرى .

الهوامش

1. أستاذ دائم بقسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة مستغانم.
2. Hubert fondin, **La science de l'information : posture épistémologique et spécificité disciplinaire**, documentaliste, science de l'information,2001, vol.38,n°2,p112.
3. حسن عمار، ليلى حسن السيد، **الإتصال ونظرياته المعاصرة**، ط2مصر،الدار المصرية اللبنانية ، 2002، ص15.
4. ريحي مصطفى عليان، محمد عبد الديس، **وسائل الإتصال وتكنولوجيا التعليم**،ط1، عمان دار الصفا للنشر التوزيع،1999، ص25.
5. حسن عماد مكاوي، ليلى حسن السيد، **الإتصال ونظرياته المعاصرة**، ط1، مصر، الدار المصرية اللبنانية، 2002، ص15.
6. ريحي مصطفى عليان، محمد عبدالديس، **وسائل الإتصال وتكنولوجيا التعليم**، عمان، دار الصفا للنشر والتوزيع، ط1، 1999 ، ص24.
7. ريحي مصطفى عليان،المرجع نفسه ،ص25.

8. دليو فضيل ، **مقدمة في وسائل الاتصال للجماهيرية** ، الجزائر ،ديوان المطبوعات الجامعية،ط2، 1998، ص18.
9. حسن عمار مكاوي، ليلى حسين السيد، **الاتصال ونظرياته المعاصرة**،ط2، مصر، الدار المصرية اللبنانية، 2002، ص24-25.
10. ريحي مصطفى عليان محمد عبد الديس، **وسائل الاتصال وتكنولوجيا التعليم**، ط1، عمان، دار الصفاء للنشر و التوزيع، 1999 ، ص29.
11. محمد جمال الفأر، **المعجم الإعلامي** ، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ،2008 ، ص26.
12. Bernard lamizet-**les lieux de la communication**, 1 ed , madaga ,1992, p100.
13. محمد جمال الفأر، **نفس المرجع** ، ص26.
14. Regis Debry, **introduction a la médiologie**, 1ere edition,presse universitaire de France,2000.p8.
15. بسام مشاقبة، **مناهج البحث الإعلامي وتحليل الخطاب**، ط1، دار أسامة للنشر ةالتوزيع، عمان، الأردن، 2009، ص12-13.
16. Bernard Miege, L'information communication –objet de connaissance-, 1ere ed , imprmer en Belgique,p-50--51
17. Armand et michèle mattelart, **penser les médias**, édiion la découvertes , paris,1986, p58.
18. محمد سيد محمد، **صحافة سلطة رابعة كيف؟**، ط1، دار الشعب للنشروالتوزيع، القاهرة، مصر ، 1989 ، ص20
19. محمد سيد محمد، **مرجع سابق**، ص29.